تعارض طبعات متون التراث العربي الإسلامي وأثره على الدراسات التراثية

د. محمد جاد كامل(*)

لم يكن ضبط النص العلمي وإخراجه في أبهى حلة، أعسر عند الخلف منه عند السلف، فشاق هو أينما كان ومتى كان، فربما كان التأليف أيسر بكثيرٍ من إصلاح كلمة واحدة كما هو عند الجاحظ بقوله في الحيوان: **ولربما أراد المؤلف أن يصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعنى أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يردُّه إلى موضعه من اتصال الكلام**"[1] . حتى إن هناك من رأى أن في حرق مسودته بعيوبها وإعادة تأليفه ثانية أهون من إصلاحها، كما ذكر الخانجي: محمد بن محمد البوسنوي الحنفي المتوفى نحو ١٣٦٥هـ في نهاية مسودة كتابه أخبار مصر وتاريخها.

وإذا كان الأمر بهذا العسر على السلف فهو أكثر عسرًا عند الخلف، فليس الأمر متعلقًا بضبط لفظةٍ أو إصلاح جملة، بل تحري نسبة المتن إلى من ألفه.

فخرجت كثير من المتون منسوبة إلى أكثر من مؤلِّفٍ، وبعناوين مختلفةٍ، وفيما يلي بعض النماذج.

فقد نُشر كتابٌ على أنه كتاب "**أحاسن المحاسن**" منسوبًا **لأبي الحسن الرخجي** المتوفى ٤٣٠هـ، ثم طبع الكتاب نفسه بعنوان "**كتاب الأمثال**" منسوبًا **لأبي منصور الثعالبي** المتوفى ٤٢٩هـ، عدة طبعات عن دار الكتب العربية الكبرى بالقاهرة ١٩٠٩، ومطبعة التقدم بالقاهرة ١٩٣٥هـ، ودار الكاتب العربي ببيروت ١٩٩٠هـ، ثم طبع الكتاب نفسه أيضا عام ٢٠٠٦م بعنوان "**الفرائد والقلائد**" منسوبًا **إلى الأهوازي: محمد بن الحسن** المتوفى في حدود ٤٣٦هـ بتحقيق د. إحسان ذنون الثامري، عن دار ابن حزم ببيروت.

وطبع كتاب بعنوان "**تاريخ بيت المقدس**" منسوبًا **إلى أبي الفرج ابن الجوزي** التوفى ٥٩٧هـ، ثم طبع الكتاب نفسه بعنوان "**باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس**" منسوبًا **إلى برهان الدين الفزاري المعروف بابن الفركاح** المتوفى ٧٢٩هـ.

(*) رئيس شعبة فهرسة المخطوطات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي.

(١) الجاحظ، الحيوان، تحقيق: د. عبدالسلام هارون، دار الجيل ببيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ١/٧٩.

وطبع كتاب على أنه كتاب" ألفاظ الأشباه والنظائر" منسوبًا لأبي البركات الأنباري المتوفى ٥٥٧هـ ثم طبع الكتاب نفسه بعنوان "الألفاظ الكتابية" منسوبًا إلى الهمذاني: عبدالرحمن بن عيسى المتوفى نحو ٣٢٠هـ بتصحيح لويس شيخو اليسوعي عن مطبعة الآباء اليسوعيين ١٨٥٥هـ، ثم طبع بعدها بالمطبعة نفسها تسع طبعات بين الأعوام ١٨٨٥م و ١٩١٣، ثم طبع منسوبا للهمذاني ست طبعات أخرى بتحقيقات مختلفة، ثم عاد وطبع بعنوان "ألفاظ الأشباه والنظائر" منسوبًا للأنباري بتحقيق البدراوي زهران عن دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٩م.

وطُبع كتابٌ على أنه كتاب "نقد النثر" منسوبًا لقدامة بن جعفر البغدادي المتوفى ٣٣٧هـ بتحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي، ست طبعات بين الأعوام ١٩٣٣ و١٩٣٨م ثم طبع المتن نفسه بعنوان "البرهان فى وجوه البيان "منسوبًا لابن وهب الكاتب المتوفى بعد ٣٣٥هـ، بتحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي عن مطبعة العاني ١٩٦٧ .

وطُبع متنٌ بعنوان "إعراب القرآن" منسوبًا للزجاج المتوفى ٣٣٧ هـ بتحقيق إبراهيم الأبياري، وصدر عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة ١٩٦٥، ثم حقق نسبته وطبعه أحمد راتب النفاخ ونشره على أنه كتاب "جواهر القرآن" للباقولي: على بن الحسين الأصبهاني المتوفى نحو ٥٤٣هـ، عن مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٣هـ، ثم رجع وصدر على أنه" إعراب القرآن" للزجاج عام ١٩٧٣ عن المطابع الأميرية، ودار الكتب الإسلامية بالقاهرة ١٩٨٢، وعالم الكتب ببيروت ١٩٨٨م، ثم عاد وطبع بعنوان "إعراب القرآن" منسوبًا للباقولي كرسالة دكتوراه لفهد سالم الراشد في كلية دار العلوم بالفيوم ٢٠٠٦م.

وطبع كتاب بعنوان "الطب النبوى" منسوبًا للحافظ شمس الدين الذهبى المتوفى ٧٤٨هـ بتحقيق قاسم الشماعي الرفاعي عن مكتبة التربية ببيروت ١٩٨٠، وقبلها بدون تحقيق طبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٦١، ثم طُبع منسوبًا لموفق الدين البغدادي: عبد اللطيف بن يوسف المتوفى ٦٢٩هـ بتحقيق عبد المعطي أمين قلعجي ١٩٨٦، ثم عاد وطُبع منسوبًا للحافظ الذهبي بتحقيق مجدي السيد إبراهيم ومحمد كمال عبد العزيز عن مكتبة القرآن بالقاهرة ١٩٨٩م، وبتحقيق يوسف علي بديوي عن دار ابن كثير ببيروت عام ١٩٩٠ .

وطبع كتاب بعنوان "الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام" منسوبًا للإمام شمس الدين القرطبي المفسر المتوفى ٦٧١هـ بتحقيق

أحمد حجازي السقا عن دار التراث بالقاهرة ١٩٨٠، ثم طُبع بعنوان "**إثبات نبوة محمد ﷺ**" منسوبًا إلى **أبي العباس القرطبي: أحمد بن عمر المتوفى ٦٥٦ هـ** بتحقيق أحمد آيت بلعيد عن دار الكتب العلمية ببيروت عام ٢٠٠٤م.

وطُبع كتابٌ بعنوان "**الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعام البيان**" منسوبًا **لابن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ** ثلاث طبعات محققة، ثم طُبع "**كمقدمة تفسير ابن النقيب**" **المتوفى سنة ٦٩٨هـ**: "**التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير**" في مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٩٥م، بتحقيق الدكتور زكريا سعيد علي.

وطُبع كتابٌ بعنوان "**درة التنزيل وغرة التأويل في بيان المتشابهات في كتاب الله العزيز**" منسوبًا إلى **الخطيب الإسكافي المتوفى ٤٢٠هـ**، ١٩٧٧م، و ٢٠٠١م، ٢٠٠٢هـ. ثم طبع المتن نفسه بعنوان "**حل متشابهات القرآن**" منسوبًا إلى **الراغب الأصبهاني: الحسين ابن محمد المتوفى ٥٠٢هـ**، بتحقيق عمر بن عبد الرحمن الساريسي.

وطُبع كتابٌ بعنوان "**طبقات الفقهاء**" منسوبًا إلى **طاش كبرى زاده المتوفى ٩٦٨هـ**، باعتناء أحمد نيلة، صدر عن المكتبة المركزية العامة بالموصل ١٩٥٨م، و١٩٦١م، وطُبع المتن نفسه بعنوان: "**طبقات الحنفية**" منسوبًا إلى **ابن الحنائي: علي جلبي بن أمر الله المتوفى ٩٧٩هـ** بتحقيق سفيان عايش محمد، وفراس خليل مشعل، وصدر عن دار ابن الجوزي بالأردن ٢٠٠٣م.

وطُبع كتابٌ بعنوان "**حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار**" منسوبًا **لابن الدَّيبع الشيباني: المتوفى ٦٤٤هـ** عام ١٩٧٩، ثم ١٩٨٢، و١٩٩٣م. ثم طُبع منسوبًا **لبحرق الحضرمي المتوفى ٩٣٠هـ** بتحقيق محمد غسان عوقول، عن دار المنهاج بجدة ٢٠٠٤م.

وطُبع كتاب "**المنتحل**" منسوبًا إلى **أبي منصور الثعالبي المتوفى ٤٢٩هـ** بتحقيق أحمد أبو علي، عن المطبعة التجارية بالإسكندرية ١٩٠١، ثم طُبع منسوبا إلى **أبي الفضل الميكالي المتوفى ٤٣٦هـ**، بتحقيق يحيى الجبوري عن دار الغرب الإسلامي ببيروت ٢٠٠٠م.

وطبع كتاب "**تهذيب الأخلاق**" منسوبًا **ليحيى بن عدي المتوفى ٣٦٤هـ** عام ١٩١٣، ثم طُبع منسوبا إلى **الجاحظ: عثمان بن بحر المتوفى ٢٥٥هـ** عام ١٩٢٤م، وعام ١٩٨٩م.

وطُبع كتاب "**الموفقيات**" منسوبًا إلى **الكاتب الدمشقي المتوفى ٥٩٧هـ** باعتناء الأستاذ وستنفلد في غلوطا ١٨٧٨م، ثم طُبع منسوبًا إلى **الزبير بن بكار المتوفى ٢٥٦هـ** بتحقيق سامي مكي العاني عن رئاسة ديوان الأوقاف ببغداد ١٩٧٢م.

وطُبع كتاب "حدود النحو" منسوبًا إلى عبد الله بلفقيه المتوفى ١٢٦٦هـ باعتناء سبرنجر في كلكته ١٨٤٩م، ثم طُبع منسوبا إلى جمال الدين الفاكهي المتوفى ٩٧٢ هـ بتحقيق محمد الطيب الإبراهيم عن دار النفائس ببيروت ١٩٩٦م.

وطُبع كتاب" المرصَّع في الأدبيات" منسوبًا إلى ابن الأثير الكاتب المتوفى ٦٣٧هـ باعتناء ويمار عام ١٣٠٤هـ بالآستانة، ثم طُبع بعنوان" المرصَّع في الآباء والأمهات" منسوبًا إلى ابن الأثير الجزري المتوفي ٦٠٦هـ بتحقيق إبراهيم السامرائي عن دار الجيل ببيروت ١٩٩١م.

وكذلك الأمر في العديد من الكتب مثل: "مير ايساغوجي": طُبع منسوبًا للرامفوري: أبي المفضل محمد، فضل الحق بالهند سنة ١٣٠٩هـ، ثم طُبع منسوبًا إلى السيد الشريف الجرجاني: على بن محمد الحنفي المتوفى ٨١٦هـ بمطبعة المؤيد بالقاهرة سنة ١٩٠٣م.

وكتاب "معاني الحروف" المطبوع منسوبًا إلى الرماني: علي بن عنسى المتوفى ٣٨٤هـ، وأيضا لابن فضال المجاشعي: علي بن فضال القيرواني المتوفى ٤٧٩هـ.

وشرح "فصيح ثعلب" بين الزمخشري: محمود بن عمر، جار الله المتوفى ٥٣٨هـ، والإستراباذي المتوفي في حدود ٤٦٧هـ. وغيرهم الكثير.

ومن يطالع "معجم المخطوطات المطبوعة" للدكتور صلاح الدين المنجد، "والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع" للدكتور محمد عيسى صالحية، "ومعجم المطبوعات العربية والمعربة" ليوسف سركيس، "وذخائر التراث العربي الإسلامي" لعبد الجبار عبدالرحمن، يتبين حجم هذه النوعية من النشرات التراثية.

وهذه المؤلفات تتصف بصفات ثلاث:

الأولى: أن أغلبها لم يطبع منسوبًا خطأ ثم صححت نسبته وتوالت الطبعات الصحيحة، بل يطبع بعنوان منسوبًا لمؤلف ثم يطبع بعنوان آخر منسوبًا لمؤلِّف آخر، ثم تعاد طباعة الأول فتليها طباعة الثاني، أي توازي إصدارات النشرتين على مرِّ الزمن، وربما بتحقيقات متعددة.

مثال:" ألفاظ الأشباه والنظائر" طُبع منسوبًا للأنباري: أبي البركات عبد الرحمن بن محمد المتوفى ٥٥٧هـ بتصحيح خير الدين نعمان بن محمود آلوسي زاده عن مطبعة الضياء سنة ١٨٨٤هـ، ثم طُبع الكتاب نفسه بعنوان" الألفاظ الكتابية" منسوبًا إلى

الهمذاني: عبد الرحمن بن عيسى المتوفى نحو ٣٢٠هـ بتصحيح لويس شيخو اليسوعي عن مطبعة الآباء اليسوعيين ١٨٥٥هـ، ثم طُبع بعدها بالمطبعة نفسها تسع طبعات بين الأعوام ١٨٨٥م و١٩١٣، ثم طُبع منسوبًا للهمذاني ست طبعات، بتحقيق محمود توفيق عن المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٩٢٢م، والدار العربية للكتاب ١٩٨٠، ومطبعة الجمالية ١٩١٤، ودار الكتب العلمية ١٩٨٠م، ومكتبة المليجي بالقاهرة ١٩٣١هـ، وبتحقيق السيد الجميلي عن دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٨٦م، ثم عاد وطُبع بعنوان" الفاظ الأشباه والنظائر" منسوبا للأنباري بتحقيق البدراوي زهران عن دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٩م.

الثانية: وهي الأغرب، أن الكثير منها لها دراسات بينت النسبة الصحيحة، معتمدة على طبعات قديمة أو على نسخ مخطوطة منها.

والثالثة: أن كلتا النشرتين من المتن الواحد (سواء بهذا العنوان لهذا المؤلف أو بذاك العنوان لذاك المؤلف) ليستا متوافرتين في مكان واحد، فمن الصعب أن تجد نسخة من كتاب "جواهر القرآن للباقولي" خارج مصر، ومن الصعب أن تجد نسخة من كتاب طبع فى الأستانة مثل "المرصع في الأدبيات"، أو في الهند مثل "حدود النحو" في البلدان العربية، فضلا عن كتاب مثل "حدائق الأنوار" الطبعة المنسوبة إلى ابن الدبيع بأمر من أمير دولة قطر السابق: خليفة بن حمد آل ثاني ووزع إهداء.

أما أسباب إخراج هذه المتون التراثية بهذا الشكل، فلا يمكن إلقاؤها على كاهل المحققين جزافا، وإنما يلام أكثر ضوابط الإتاحة الضيقة في اغلب مكتبات المخطوطات في العالم، فكثير من هذه النشرات التراثية لا تحسمها كتب التراجم والمعاجم والأثبات والإجازات، بل يحسمها جمعٌ لكمٍّ من النسخ ومقابلتها ودارستها، وهو عمل ما أشقّه وما أكلفه، فليس هناك حسم لكتاب "الطب النبوي" في خمس وثلاثين نسخة، والحسم الوحيد هو في نسخةٍ موجودةٍ في دار الكتب المصرية، فلن يظفر المحقق بنسبة صحيحة للكتاب قطعا بدون فحص ست وثلاثين نسخة، فهل هذا ممكن؟

والسبب الثاني: دور نشر كثير منها لا مرجعية تحكيمية لازمة لها لضمان تطبيق معايير التحقيق العلمي، اللهم إلا حكومية لضمان خلوها من الثالوث المحرم.

والسبب الثالث: طبيعة نسخ المتون العربية نفسها التي طالما تلاعب النساخ في جوهرها فضلا عن نسبتها، ولا يستبعد العلماء العرب أنفسهم لتأليفهم على لسان غيرهم، أو عزوهم - مختارين - عددا من مؤلفاتهم إلى غيرهم لسبب أ لآخر، ويكفينا شاهدا ما قاله الجاحظ في رسالة " نفي التشبيه " ضمن رسائله التي حققها طيب

الذكر عبد السلام هارون " **وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي، ومن شبه هؤلاء من مؤلفي الكتب، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب؛ لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته علي ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماما يقتدون به ويتدارسونه بينهم ... لأنه لم يترجم باسمي ولم ينسب إلى تأليفي**"[1].

إن وجود هذه الفئة من النشرات التراثية وبهذا الكم، واستمرارها في التزايد، من شأنه أن يمثل تهديدا للدراسات التراثية بكل ألوانها: الدينية واللغوية والتاريخية والعلمية، وينذر بدراسات مشوهة مختلطة، لا نتائج منطقية فيها، فكم من باحث تعامل مع كتاب "**عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**" لأبي شامة المقدسي: عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥هـ (تحقيق أحمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩١م) وهو المرجع الرئيس في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية مطمئنا إلى أحداثه لكونها لعالم قريب من أحداثها (الدولة الصلاحية ٥٦٥هـ - ٦٥٩هـ)، في حين أن الكتاب هو في حقيقته كتاب "**الزوائد على عيون الروضتين**" لصلاح الدين العلائي: خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي الشافعي المتوفى ٧٦١هـ (يبعد تاريخيا ٩٨ سنة عن الأحداث، والغريب أنه يغلب على الكتاب أحداث جرت بعد وفاة المؤلف بزمن بعيد.

وأخيرا نقول: إذا كان المسعودي قال في مروج الذهب: لولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر؛ لبطل أول العلم وضاع آخره. فيجوز لنا الآن أن نقول: ولو لم يضبط حق ضبطه لخلط أصله وتاه في الدرب لبه.

(١) الجاحظ، الحيوان، تحقيق: د. عبدالسلام هارون، دار الجيل ببيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ١/٢٩٣.